مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية أنشئت سنة ١٣٦٩هـ ١٩٥٠م الجزء الثاني -المجلد الثاني والستون

١٤٣٦ هـ ــ ٢٠١٥ م

مجلة المجمع العلمي

فصلية محكمة أنشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

الجزء الثاني - المجلد الثاني والستون

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

شبكة كتب الشيعة

shiabooks.net

mktba.net رابط بديل

مرحلة التموج في حركة السكان في مدينة بغداد الكبرى
الازدهار والتراجع
١٧٠ – ٦٥٦ هـ / ٧٨٦ –١٢٥٨ م
٦٥٦–١٢٨٦ هـ ١ ١٢٥٨–١٨٦٩م(*)

الدكتور عبد علي الخفاف

جامعة الكوفة / عميد معهد الفارابي للدراسات العليا

الملخص :

يتناول هذا البحث فترة طويلة من تاريخ السكان "التاريخ الديموغرافي" لمدينة بغداد تمتد الى اكثر من ألف عام (١٧٠–١٢٨٦هـ) ويصعب البحث فيها عن واقع السكان "الواقع الديموغرافي "بفعل ضعف المصادر والمراجع . لقد تناولنا هذه الفترة في مرحلتين هما مرحلة التموج في حركة السكان ومرحلة التراجع التي اتسمت بالتراجع المستمر لواقع السكان .

(*) هذه هي المقالة العلمية الثالثة التي تناولنا فيها تاريخ السكان (التاريخ الديموغرافي) لمدينة بغداد الكبرى ... ،

أولا :- مرحلة التموج في حركة السكان :

١٧٠-٦٥٦هـ \ ٧٨٦- ١٢٥٨ماستمرت هذه المرحلة التاريخية لبغداد ٤٨٧ عاما حكم فيها ٢٥ خليفة هم :

- هارون الرشيد – ١٧٠ – ١٩٣ هـ
- محمد الامين – ١٩٣ – ١٩٨
- المأمون – ١٩٨ – ٢١٨
- محمد المعتصم – ٢١٨ – ٢٢٧ وبخلافته بدا العصر العباسي الثاني حسب تقسيم المؤرخين لتاريخ الدولة العباسية . لقد دام مقامه في بغداد اكثر من عامين بقليل ، بعدها اضطر الى الانتقال الى "سر من رأى – سامراء" التي حكم فيها ٧ خلفاء ابتداءً منه وقد جاء من بعده الخليفة الواثق هارون بن المعتصم وانتهاءَ بالخليفة المعتمد بن احمد بن المتوكل الذي عاد بالخلافة الى بغداد ، وبذلك بقيت سامراء عاصمة للخلافة العباسية نحو ٥٨ عاما .

بعد الحكم في سامراء عادت بغداد عاصمة الخلافة العباسية وحكم فيها ٢٢ خليفة هم :

- احمد المعتضد – ٢٧٩ – ٢٨٩ هـ
- علي المكتفي – ٢٨٩ – ٢٩٥
- جعفر المقتدر بالله – ٢٩٥ – ٣٢٠

- محمد القاهر بالله – ٣٢٠ – ٣٢٢
- محمد الراضي بالله – ٣٢٢ – ٣٢٩
- ابراهيم المتقي لله – ٣٢٩ – ٣٣٤
- عبد الله المستكفي بالله ٣٣٤-٣٣٨
- الفضل المطيع لله ٣٣٨-٣٦٣
- عبد الكريم الطائع لله ٣٦٣-٣٨١
- احمد القادر بالله ٣٨١-٤٢٢
- عبد الله القائم بامر الله ٤٢٢-٤٦٧
- عبد الله المقتدي بامر الله ٤٦٧-٤٨٧
- احمد المستظهر بالله ٤٨٧-٥١٢
- الفضل المسترشد بالله ٥١٢-٥٢٩
- منصور الراشد بالله ٥٢٩-٥٣٠
- محمد المقتفي لامر الله ٥٣٠-٥٥٥
- يوسف المستنجد بالله ٥٥٥-٥٦٦
- الحسن المستضيء بالله ٥٦٦-٥٧٦
- احمد الناصر لدين الله ٥٧٦-٦٢٢
- محمد الظاهر بامر الله ٦٢٢-٦٢٣

- منصور المستنصر بالله ٦٢٣-٦٤٠
- عبد الله المستعصم بالله ٦٤٠-٦٥٦. [1]

انها مرحلة تاريخية مهمة اقتصاديا واجتماعيا انعكست اثار التقدم الاقتصادي الاجتماعي فيها على نمو السكان و تطور العمران الذي توقف ببداية الدور البويهي حيث دخلت بغداد فترة طويلة من التدهور السياسي.

شهدت المرحلة انتقال العاصمة / مركز الخلافة / الى سامراء وقد استمرت ٥٨ عاما فيها كما اشرنا ، وذلك ما بين (٢٢١ - ٢٧٩ هـ) (٨٣٦ - ٨٩٢ م) . ولاشك في ان انتقال مركز الخلافة تسبب في تراجع بغداد اقتصاديا واجتماعيا ومن ثم سكانيا .

اتسم مطلع هذه المرحلة بالنمو الاقتصادي وبالتطور الاجتماعي مما تسبب في نمو السكان وتقدم العمران ، فقد جاء نمو السكان بشكل مطرد وسريع وذلك بفعل اسباب الجذب السكاني الى المدينة ، فبغداد ذات موضع يتسم ببيئة جغرافية مشجعة على الهجرة إليها ، كما ان مكانتها مركزا للخلافة جعلت منها مدينة ذات نشاطات اقتصادية متنوعة و الى جانب ذلك فان

---

[1] تم الاعتماد في تحديد سنوات حكم الولاة علي مرزة ، منذر جواد (٢٠٠٧) بغداد وحاكموها عبر العصور - مطبعة الغري الحديثة - النجف - ص٢٣٢ - ص٢٣٦
(وعند مراجعتنا : اتضح ان المؤلف اعتمد على) :-
- الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي - تاريخ الخلفاء .
- كمال الدين الدميري - حياة الحيوان الكبرى .
- الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير - التاريخ .
- ابن الاثير ، ابو الحسن علي بن الكرم الشيباني الجزري - الكامل في التاريخ .

العباسيين الغوا قيود الهجرة وهي القيود التي وضعت نهاية العصر الاموي.[٢]

نحن نرى أن إلغاءهم قيود الهجرة الى بغداد يعود الى التلاشي النسبي للتعصب القومي ، العربي ، الذي ميز اليات العمل السياسي في الدولة الاموية ، لقد فتح العباسيون ابواب بغداد على مصراعيها للمهاجرين الوافدين الباحثين عن مدارس العلم والمعرفة والباحثين عن اسباب الرزق . يضاف الى ذلك، ما هو معروف ، عن اعتماد العباسيين على عناصر الاعاجم من مختلف الاثنيات في اسقاط الدولة الاموية .

أدى العامل الاقتصادي ، حيث اتسعت اسواق بغداد لأعمال الصناعات والحرف وللخدمات بأنواعها المختلفة وللتجارة ، دورا مهما في اتساع سوق العمل بدءا بأعمال البناء والحدادة والنجارة وإنتهاءً بأعمال التجارة والصيرفة . ولابد ان تزايد الطلب على الايدي العاملة في بغداد تسبب في حصول اول تيارات الهجرة الريفية اليها ، الى جانب الهجرة من حواضر العراق الاخرى وهذه جميعها هي تيارات الهجرة الداخلية .

يؤشر " اليعقوبي " دور هذه الهجرة في نمو السكان وتزايد اعدادهم في بغداد، فيذكر انتقال الناس اليها من جهات مختلفة من العراق ، ومن بين ما هاجر اليها وجوه واعيان من مدينتي البصرة والكوفة وكانتا يومذاك هما

---

[٢] محمد علي ، ابراهيم ميرزة (٢٠٠٨) مدينة بغداد ، الابعاد الاجتماعية وظروف النشأة ، دراسة بنائية تاريخية – الطبعة الاولى – الحضارية للطباعة والنشر – بغداد – ص ١٦٩ .

العراق[٣]. ولم تقتصر الهجرة الى بغداد على داخل العراق بل توجهت اليها اعداد من الوافدين من العديد من بلدان العالم لاسيما تلك المحيطة بالعراق والقريبة منه ، حتى وصفت بغداد بالمدينة الدولية بفعل تنوع الاثنيات التي تعيش فيها ، فقد كان مجتمع بغداد خليطا اثنيا يتعايش الناس فيه من امم شتى ومن مختلف الاجناس ، ممن وفدوا اليها طلبا للعلم و للعمل وكسب الرزق او ممارسة المهن المتنوعة او من الارقاء والمجندين .

لقد لعب العامل الثقافي (العلمي) الى جانب العامل الاقتصادي دورا مهما في الهجرة فلم تقتصر الهجرة على الباحثين عن مصدر للرزق بل توجه الى بغداد عدد كبير من الراغبين في متابعة العلم والمعرفة في مدارس بغداد ومجالسها. ولابد من التنويه الى تنامي نشاط اقتصادي مهم وهو ما يطلق عليه اليوم باقتصاد المالية ، فتؤشر المصادر تطور النظام المصرفي واتساع اعمال الصرافين والجهابذة وكانت لهم اسواق خاصة في القسم الغربي من المدينة (جانب الكرخ) .[٤]

أن للخلفاء العباسيين دورهم في تنمية اقتصاد المدينة وازدهاره ، فقد ارادوا لبغداد مكانة اقتصادية متميزة مثل مكانتها السياسية حتى أصبحت

---

[٣] اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح – البلدان – (وضع حواشيه محمد امين ضناوي) الطبعة الاولى (٢٠٠٢) (منشورات محمد علي بيضون) دار الكتب العلمية / بيروت / ص ٤٦ .

[٤] في موضوع النشاطات والمهن المالية ، الصيرفة والجهبذة ، ينظر الى : الدوري ، عبد العزيز (١٩٩٩) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (مركز دراسات الوحدة العربية) الطبعة الرابعة ، ص ١٨٣ – ١٩٨ .

مركزا دوليا كبيرا للتجارة. فباتت الاسواق من معالم الحياة في جانبي المدينة الكرخ والرصافة ، وكان لكل تجارة سوقها الخاص بها ، ومن بين هذه الاسواق : سوق العطارين وسوق باعة القماش وسوق الصاغة وسوق الوراقين وسوق باعة الغنم وغيرها من الاسواق ، وثمة اسواق معروفة للتجار الاجانب تتركز في باب الشام .

لم تكن هذه الاسواق صغيرة فسوق الوراقين ، على سبيل المثال ، كانت تضم اكثر من مائة حانوت ، على ان هذه الأسوق تعد من الاسواق التخصصية التي لا يعنى بها سوى النخبة من المؤلفين والكتّاب . ولابد من الاشارة ان لكل تجارة ولكل حرفة شيخ تعينه السلطة (الحكومة) ولكل حرفة صانع وأستاذ كما يقول بذلك "اخوان الصفا " .[٥]

لقد نتج عن الواقع الاقتصادي الجديد ، واقع التجارة والصناعات ، المهن والحرف ، مجتمع جديد تبدلت فيه العلاقات القبلية الى علاقات مدنية وعلاقات أساسها مصالح العمل ، وبفعل هذه المصالح انصبت المكونات الاثنية في بوتقة المجتمع الحضري Urban Society حتى برزت ظاهرة "التوليد" او المولدين ، اي الامتزاج بين العناصر العربية واهل البلاد التي تم فتحها من قبل العرب المسلمين ، انها ظاهرة اجتماعية شهدتها المدن العربية نتيجة الاختلاط والزواج كما شهدتها مدينة بغداد.لقد اتسعت هذه الظاهرة في المجتمع العباسي ، فبيوت الخاصة ، من الخلفاء والامراء والتجار تضم مزيجا اثنيا من عدد من الاجناس والقوميات ، من ذلك اكتسب جيل المولدين

---

[٥] محمد علي ، إبراهيم ميرزة ، المصدر السابق – ص١٦١ .

في المجتمع العباسي البعض من السمات المميزة له ، وكان له دور في خلق انماط اجتماعية متنوعة بفعل التركيبة العربية الاعجمية (الاجنبية) .

تزايدت بشكل كبير ، اعداد اهل الذمة في بغداد ، وفي مدن العراق الرئيسة مثل البصرة والكوفة وواسط ، كذلك تزايدت اعداد الرقيق والعمال الاجانب ، فقد توسع العباسيون في جلب الرقيق ، وكان في بغداد شارع يسمى بشارع "دار الرقيق" [٦]. ان جميع هؤلاء يمثلون عناصر الهجرة الخارجية ، انهم الوافدون من بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر ومن تركستان ومن جهات افريقيا . نعتقد ان سنوات حكم الخلفاء هارون الرشيد والامين والمأمون هي سنوات الهجرة الى بغداد ، الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية ، فكانت العامل السكاني الرئيس وراء تزايد اعداد السكان في المدينة بصورة مطردة وسريعة .

على وجه التحديد توصف اعوام حكم الخليفة هارون الرشيد بأنها الفترة الذهبية لخلافة بني العباس ، فكانت فترة الازدهار الاقتصادي الذي عكس اثاره في التطور العمراني والتقدم الاجتماعي والثقافي ، ولاشك في ان هذا الازدهار والتقدم يعود الى حالة الاستقرار السياسي . فقد اتسعت بغداد اتساعا كبيرا فقد بلغ العمران في الجانب الغربي من باب قطربل في الشمال حيث تقع الكرخ الى قناة عيسى الكبرى وامتدت العمارة غربا حتى

---

[٦] المصدر نفسه – ص١٧٠ .

المحول ، اما الجانب الشرقي فقد شهد اتساعا من باب الشماسية حتى المحرم .[٧]

ان مؤشرات هذا الازدهار والتقدم هي كثرة الحمامات وكثرة المكتبات وتعدد الاسواق المتخصصة ، مثل سوق الاطعمة وسوق الحيوانات وسوق السلاح وسوق الوراقين وسوق الالبسة وسوق العطور ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وعبّر عن حالة بغداد العديد من المؤرخين ومنهم المؤرخ الخطيب البغدادي في سفره الشهير " تاريخ بغداد " بقوله : وأكثر ما كانت بغداد عمارة واهلا في ايام الرشيد .[٨]

اننا نقدر المعدل السنوي لنمو السكان في أعوام حكم الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) بحدود ١,٥٪ و يمثل المعدل ١٪ النمو الطبيعي الناتج عن الفرق ما بين الولادات و الوفيات ، ويمثل ٠,٥٪ النمو الحاصل بفعل الهجرة الى المدينة .

ان حساب نمو السكان على اساس المعدل ١,٥٪ يعني زيادة عدد سكان المدينة من ٥٠٠٠٠٠ نسمة ، ايام ابو جعفر المنصور ، الى ٧٠٤١٨٨ نسمة ، لقد حصل هذا النمو بمتوسط سنوي مقداره ٣٠٦١٧ نسمة و كان منه بحدود ١٠٢٠٥ نسمة زيادة بفعل الهجرة الى المدينة . لقد نشطت الهجرة

---

[٧] الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم) ، (١٩٦٦) ، تاريخ الرسل والملوك ، الطبعة الثانية ، ج ٧- دار المعارف – مصر ، ص ٣١٦ .

[٨] حسين ، خليل شاكر (١٩٩٠) التطور التاريخي لمدينة بغداد بعد مرحلة التأسيس (المعالم العمرانية) (ندوة بغداد في التاريخ) جامعة بغداد / كلية التربية الأولى .

الى بغداد ، الداخلية و الخارجية ، في عهد حكم هارون الرشيد والامين والمأمون ، فكانت العامل المهم وراء زيادة اعداد السكان بشكل سريع ومطرد .

نؤشر بعض اقوال الخطيب البغدادي "التي نستدل منها على كبر حجم بغداد ، اي حجم السكان فيها : قال : علي بن المحسن التنوخي : اخبرني ابي ، قال ابو القاسم ابن الحسن الديلمي ، قال : سافرت في الافاق ودخلت البلدان من حد سمر قند الى القيروان ، ومن سرنديب الى بلد الروم ، فما وجدت بلدا افضل ولا اطيب من بغداد " " قال محمد بن سلام : سمعت ابا الوليد يقول : قال لي شعبة : ادخلت بغداد ؟ قلت : لا ، قال : فكأنك لم ترَ الدنيا "

"وسأل الامام الشافعي صاحبه يونس : يا يونس ادخلت بغداد "

"وقال ابو اسحاق الزجاج : بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية "

"وقدم عبد الملك بن صالح العباسي الى بغداد فرأى كثرة الناس فيها ، فقال : ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت ان الناس قد نودي بهم ، فقد ازدحمت بغداد بسكانها واتسعت حتى شملت مساحة واسعة من الارض على جانبي دجلة ، وقامت فيها حارات هي اشبه بمدن ، بجمالها.[٩]

---

[٩] الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي – تاريخ بغداد او مدينة السلام / منذ تاسيسها حتى سنة ٤٦٣ هـ / المجلد الاول ، ج٥ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، مصر ص٦٦- ص٧٠ .

ومما يؤشر تعاظم حجم السكان وتزايد اعدادهم ما حصل من اقتطاع القطائع خارج بغداد المدورة فكان ذلك بمثابه البداية لبناء الضواحي – Suburban – وكانت اولى هذه الضواحي قد بنيت عند ابوابها مثل ضاحية العباسية الغنية ببساتينها ، وكانت هذه الضواحي ذات وظائف خدمية و لاسيما خدمة المسافرين ، ففيها الخانات واصطبلات الخيل ، وبعد تزايد اعداد السكان فيها وتطورها تعددت الوظائف الحضرية التي تقدمها ، ويصبح لها مسجدها الخاص ويتردد اليها الخلفاء فكان المأمون يتردد على ضاحية الشماسية خارج المدينة المدورة .

وتشير مصادر تاريخ بغداد الى ظهور الاحياء الارستقراطية مثل الظاهر والشماسية والمأمونية ودرب عون ، وتوجد فيها احياء الطبقة المتوسطة مثل قطيعة الكلاب ونهر الدجاج ، الى جانب بيوت العامة من الناس . وبشكل عام توصف البيوت بأنها من طابقين ولها حمامات ، وكانت السجاجيد والستائر والوسائد من مفردات الاثاث التي يمكن ملاحظتها ، كما تشير هذه المصادر الى كثرة اعداد المساجد والحمامات .(*)

منذ عام ٢٢١هـ بدأ عدد السكان يتراجع على اثر نقل عاصمة الخلافة الى سامراء فنحو نصف عدد السكان انتقل مع الخليفة ، وهم الحاشية و الجيش وبقي تيار الهجرة مستمراً الى خارج بغداد حتى ٢٣١هـ وفي الاعوام

(*) وصف الرحالة "ابن جبير" بغداد في رحلته ايام الناصر لدين الله (٥٧٦- ٦٢٢هـ) وصفاً يدل على مدى تقدمها الاقتصادي الاجتماعي السكاني . صحيح ان هذه الرحلة حصلت في زمن لاحق لمطلع الفترة التاريخية التي نحن بصددها الا ان هذا التقدم الذي وصفه لابد انه كان حصيلة لسنوات طويلة سابقة لرحلته .

٣٢٠ – ٣٦٧ هو الاعوام ٣٧٢ – ٤٥٠ هـ شهدت حالات من التوقف او من التراجع في اعداد السكان بفعل الحروب لاسيما ما بين ٢٥٥–٢٧٠هـ فتشير المصادر الى مقتل [١٥٠٠٠٠٠] نسمه [١٠] . على مدى اكثر من ٢٥٠ عاما وقد يكون هذا العدد مبالغ فيه.

ولم يقتصر الامر على ضحايا الحروب والمعارك بل كانت اعوام هذه الحروب اعوام استثنائية ، يتوقف فيها الحراك الاقتصادي وتظهر المشكلات الاجتماعية المتنوعة وتضعف ادارة الدولة وخدماتها وبالتالي يتدهور الوضع الصحي فتنتشر الاوبئة والطواعين بشكل خاص ، وكان اعظمها ما حصل في عام ٢٥٨ هـ فيشير " ابن الاثير " (..... فهلك ..... خلق كثير ببغداد وواسط وسامراء وغيرها ....)[١١]. ويذكر " ابن الجوزي " ان وباء الطاعون قد ظهر في الأحواز ثم انتشر في العراق ... وكان يموت كل يوم ببغداد خمسمائة الى ستمائة .[١٢]

وفي عام ٣٢٠ هـ تعرض سكان بغداد الى الطاعون والى القحط ، ففي ربيع هذا العام كثرت الأمراض الحادة منذ شباط وكثر الموت .....[١٣] واستمرت الفتن وتدهورت الحالة الاقتصادية الاجتماعية وعم الجوع حتى

---

[١٠] ابن الاثير ، أبو الحسن علي بن الكرم الشيباني الجزري (١٩٧٨) الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، بيروت ، ص ٧٥ .

[١١] المصدر نفسه ، المجلد السابع -- ص٢٥٦ .

[١٢] ابن الجوزي ، ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن – مناقب بغداد (تحقيق محمد بهجت الاثري) (١٣٤٢هـ) الجزء الخامس ، دار السلام / بغداد / ص ٨ .

[١٣] المصدر نفسه – الجزء السادس – ص٢٤٠ .

عام ٣٦٧هـ فكانت طوال هذه الفترة حالة تراجع سكاني . لقد قضى موت عضد الدولة عام ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م على الاستقرار السياسي والاقتصادي في بغداد وفي العراق عموما ، مما نتج عنه تدهور كبير في الاوضاع الاجتماعية ، فتتوقف في مثل هذه الظروف حركة الزواج وترتفع معدلات وفيات الاطفال الرضع ووفيات ما حول الولادة ، وجميع ذلك عوامل لتراجع عدد السكان . والمعروف ان بغداد شهدت في الاعوام (٣٧٢ -٤٥٠)هـ اوضاعا من الفوضى السياسية والضعف الإداري وحالات الاقتتال بين السلاطين والامراء البويهيين وجيوشهم ، ومن المتوقع ان يصاحب هذه الاوضاع الجوع وانشار الاوبئة ، فقد حصل ان مات كثير من الناس جوعا عام ٣٧٣هـ .[١٤]

واجتاح الجدري بغداد والعراق عموما ما بين ٤٢١-٤٢٣ هـ ويذكر انه في عام ٤٢٥ هـ مات في بغداد اكثر من ٧٠٠٠٠ نسمه [١٥] وفي عام ٤٤٧هـ دخل السلاجقة بغداد ودخل مع السلطان (طغرلبك) افراد جيشة الذين يقدرون ٥٠٠٠٠ مقاتلا [١٦] فكان هذا العدد قد شكل ضغطا سكانيا

---

(١٤) المصدر نفسه - الجزء السابع - ص١٢١ .

(١٥) المصدر نفسه - الجزء الثامن - ص٧٩ .

(١٦) محمد ، خضير جاسم (١٩٧٩) ، بغداد منذ تأسيسها حتى الغزو المغولي ، دراسة في التغيرات السكانية ، مجلة التربية والعلم ، كلية التربية ، جامعة الموصل ، العدد الأول ، ص١٤٦ ، عن : محمد عمراني ، تاريخ ، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، ورقة رقم ٣١٢ .

تسبب في الغلاء ونقص المواد الغذائية ، انها زيادة سكانية في ظروف اقتصادية وامنية غير مشجعه .

في مثل هذه الظروف تبرز الاسباب القوية التي تدفع الناس الى الهجرة ، وهذا ما حصل في بغداد فقد هاجرت اعداد كبيرة من الناس الى خارجها عام ٣٧٧ هـ بفعل الغلاء الشديد وبفعل الحرب ما بين الاتراك والديلم عام ٣٧٩ هـ والفتن في الاعوام ٣٨١ - ٣٨٤ هـ والاعوام ٣٩١ - ٣٩٣ هـ فكانت سببا في نزوح الديلم ومغادرتهم لبغداد .[١٧]

كان للعوامل الطبيعية تأثيرها في التراجع السكاني ، وبشكل خاص في النزوح من بغداد ، وهذه العوامل كانت الفيضانات المدمرة مرة والقحط والسجاعات وشحه المياه مرة اخرى .هكذا نلاحظ دور العوامل البشرية ودور العوامل الطبيعية في حركة السكان والتأثير في نموهم وتراجع هذا النمو . نتوقع ان استقرار الوضع الامني والاقتصادي والاجتماعي ، نسبيا ، على مدى ١٠ اعوام هي ما بين ٤٧٠-٤٨١ عاما شجع على عوده نمو السكان باتجاه الزيادة وذلك بفعل اثر الزيادة الطبيعية الناتجة عن الفرق ما بين الولادات والوفيات والتي حصلت نتيجة توجه الناس الى الزواج ، فلم تذكر مصادر تاريخ بغداد اية نكبة سياسية او اقتصادية او انتشار لوباء او حصول لفيضانات او مجاعة في هذه الاعوام العشرة . واذا ما توقف النمو السكاني بعد هذا العقد من الاعوام فان ٨٥ عاما التي تلته ، ٥٥٥-٦٤٠ هـ كانت أعوام قد عرفت نمو السكان ، فكان لعامل الهجرة

---

[١٧] ابن الاثير ، - المصدر السابق ص٤٩ .

القسرية الى بغداد اثر واضح في هذا النمو ، والهجرة القسرية حصلت بنزوح اعداد كبيرة من سكان الريف المحيط ببغداد والقريب منها هربا من جيوش المغول التي دخلت هذه المناطق من العراق ، انها هجرة قسرية ، فقد حاولت اعداد المهاجرين الاحتماء ببغداد ، وقد تسببت في حصول الضغط على المواد الغذائية وعلى الخدمات المطلوبة فظهرت المشكلات الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية . بشكل عام فأننا نقدر اعداد السكان في بغداد قبل كارثة المغول بحدود ١٠٠٠٠٠٠ نسمة .

إن الاساس السكاني (الديموغرافي) في هذه المرحلة من تاريخ بغداد هو النمو لا سيما في خلافة هارون الرشيد والامين والمأمون ، ونشطت الزيادة الطبيعية مع عامل الهجرة في هذا النمو ، حيث توجهت تيارات الهجرة الداخلية الى جانب الهجرة الخارجية المتمثلة بالوافدين من الفقهاء والعلماء والادباء والكتاب وكذلك الباحثين عن العمل ، من العمال ومن الفنيين .

بشكل عام فان التاريخ السكاني (التاريخ الديموغرافي) لبغداد على مدى هذه المرحلة التي تقترب من ٥٠٠ عاما لم يؤشر اتجاها واحدا لحركة السكان ، بل كان يحصل الاتجاه نحو النمو وزيادة الاعداد وسرعان ما تظهر الاسباب التي تقود الى التوقف والى التراجع.

لقد توالى العباسيون على خلافة الحكم في بغداد في خمسة عصور كما حددها المؤرخون ، وكما تمت الاشارة اليها ، وقد تركز ازدهار مدينة بغداد اقتصاديا واجتماعيا ومن ثم سكانيا في ما حدده المؤرخون بالعصر العباسي الاول (١٤٥ - ٢١٨ هـ) (٧٦٢ - ٨٣٣ م) والذي توالى الخلافة فيه كل من :-

- ابو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) (٧٥٢-٧٧٥م)
- المهدي (١٥٨-١٦٩هـ) (٧٧٥-٧٨٥م)
- موسى الهادي (١٦٩ - ١٧٠هـ) (٧٨٥-٧٨٦م)
- هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) (٧٨٦-٨٠٩م)
- محمد الامين (١٩٣-١٩٨هـ) (٨٠٩-٨١٤ م)
- عبد الله المأمون (١٩٨ -٢١٨هـ) (٨١٤ -٨٣٤ م)

فأخذت حركة السكان اتجاها واحدا نحو النمو المطرد في مرحلتين حسب تقسيمنا لتاريخ السكان في مدينة بغداد ، هما مرحلة التأسيس والنشأة وبداية مرحلة التموج السكاني لاسيما في الاعوام التي شهدت حكم هارون الرشيد ومحمد الامين وعبد الله المأمون رغم ان حالة الصراع التي حصلت بين الخليفتين الاخوين لا بد وان كان لها تأثيرها على هذا الازدهار ، الا انه يبدو ان محدودية هذا التأثير كانت بفعل قصر فترة الصراع . اننا نقدر عدد السكان عند نهاية فترة الازدهار الاقتصادي الاجتماعي السكاني بحدود ١٠٠٠٠٠٠ نسمه كما تمت الا شارة الى ذلك.

التراجع الذي حصل لبغداد كان بفعل غزو التتار لها وتخريب معالم الحضارة فيها ، فسقطت سياسيا واقتصاديا وتدهورت اجتماعيا وثقافيا وعمرانيا ولكل اشكال السقوط هذه دورها في تراجع حجم السكان فيها فقد تحولت من مدينة مليونيه في القرن العاشر الى قرية متدهورة .

بشكل عام فان الاعوام ما بين ١٧٠ – ٢٢٠هـ هي أعوام نمو مطرد للسكان تلتها أعوام من التراجع المطرد ايضا وذلك بعد نقل مقر الخلافة الى سامراء . استمر التراجع حتى عام ٢٨٠هـ حيث حصلت العودة الى بغداد عاصمة للخلافة العباسية فاتجه مؤشر السكان نحو النمو حتى العام ٣٤٠هـ حيث اصبح المؤشر غير مستقر يتجه نحو النمو و الزيادة مرة و نحو التراجع مرة ثانية حتى دخول هولاكو الى بغداد فحولها الى قرية مخربة. والجدول و الشكل البياني يؤشران حالة النمو والتراجع .

الجدول (٣) حالة النمو و التراجع في سكان مدينة بغداد الكبرى

السنة (هـ)	عدد السكان	الحالة
١٧٠	٥١٥١١٢	هجرة للعمل في دوائر الحكومة ببغداد
١٨٠	٥٩٧٨٠٨	نمو بمعدل ١,٥ ٪
١٩٠	٦٩٣٧٨١	استمرار النمو بنفس المعدل
٢٠٠	٨٠٥١٦١	استمرار النمو بنفس المعدل
٢١٠	٩٣٤٤٢٢	استمرار النمو بنفس المعدل
٢٢٠	١٠٨٤٤٣٥	استمرار النمو بنفس المعدل
٢٢١	٥٤٢٢١٧	انتقال نصف السكان مع انتقال الحكومة الى سامراء
٢٣٠	٢٣٣٤٠٦	تراجع في عدد السكان (-٠,١٠٪)
٢٤٠	٢١٩٧٠٩	تراجع بمعدل (-٠,٦٪)
٢٥٠	٢٣٠٩٤٤	نمو بمعدل (٠,٥٪)
٢٦٠	٢٢٨٦١٧	استمرار التراجع
٢٧٠	٢١٧٤٤٠	استمرار التراجع
٢٨٠	٦٣٢٥٥٤	هجرة الى بغداد وعودة الخلافة (١٪)
٢٩٠	٦٩٨٧٣٣	نمو طفيف
٣٠٠	٧٧١٨٣٦	نمو طفيف

٣١٠	٨٥٢٥٨٧	نمو طفيف
٣٢٠	٩٢٩٦٦٥	نمو طفيف
٣٣٠	٩٠٢١٤٨	نمو طفيف
٣٤٠	٨٧٥٤٤٥	تراجع طفيف
٣٥٠	٨٨٤٢٣٩	نمو طفيف
٣٦٠	٨٩٣١٢١	نمو طفيف
٣٧٠	٩٠٢٠٩٢	نمو طفيف
٣٨٠	٧٧١١١١	تراجع طفيف
٣٩٠	٦٣١٨٥٣	تراجع
٤٠٠	٥٤٥٥٣٨	تراجع
٥٠٠	٦٩٥١٤٢	نمو بفعل الهجرة القسرية من الريف (لجوء الى بغداد)
٦٠٠	٨٨٣٩٠٥	استمرار الهجرة
٦٥٦	٣٠٠٠٠	كارثة المغول

يلخص لنا الجدول واقع السكان على مدى ٤٨٦ عاما من النمو والزيادة ومن التراجع والتناقص العددي وذلك بفعل تأثير العوامل الادارية والامنية والاقتصادية ومدى انتشار الامراض و الاوبئة .

الشكل رقم (٢)

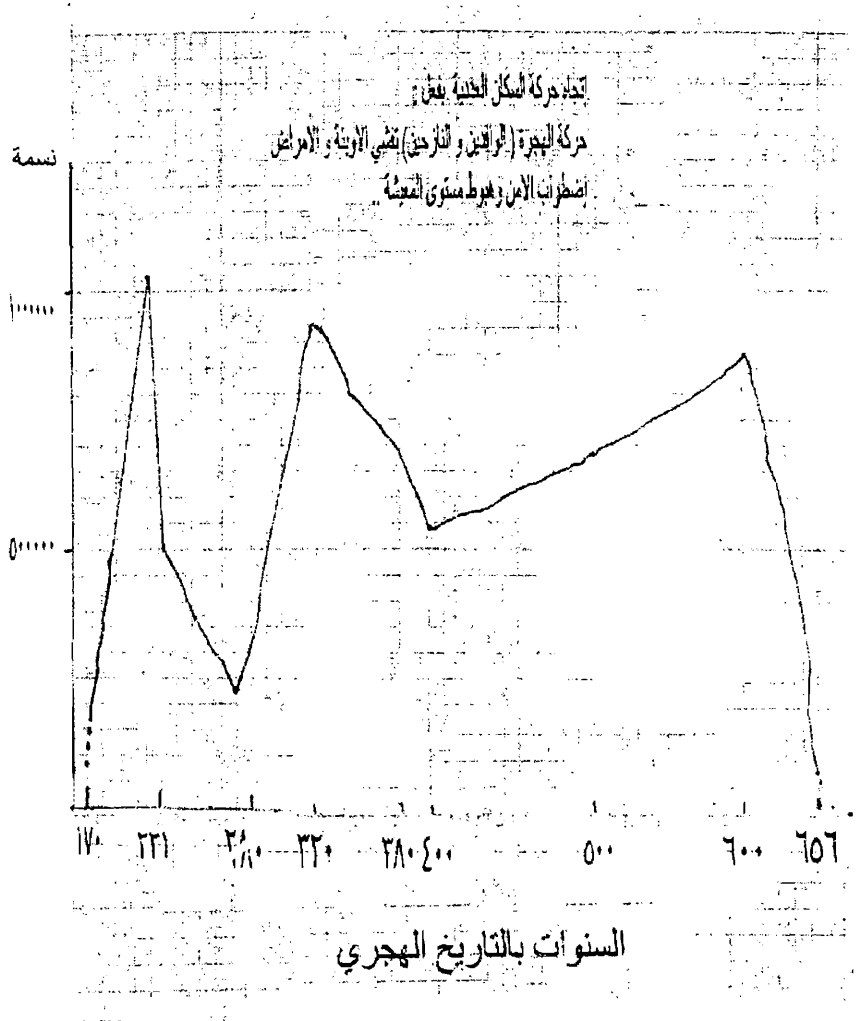
اتجاه حركة السكان الخطية بفعل :
حركة الهجرة (الوافدين و النازحين) نقص الاوبئة ، الامراض
اضطراب الامن وهبوط مستوى المعيشة
نسمة
١٠٠٠٠٠٠
٥٠٠٠٠٠٠
١٧٠
٢٢١
٣٢٠
٤٠٠
٥٠٠
٦٠٠
٦٥٦
السنوات بالتاريخ الهجري

ثانيا: مرحلة التراجع : ٦٥٦- ١٢٨٦هـ / ١٢٥٨- ١٨٦٩م

امتدت هذه المرحلة من التاريخ السكاني (التاريخ الديموغرافي) لمدينة بغداد نحو ٦٠٠عاما ، بدأت بعد سقوط بغداد على يد "هولاكو" حفيد جنكيز خان قائد المغول الاول الذي زحف بجيوشه من اواسط اسيا واتجه غربا . انها مرحلة السيطرة الاجنبية على العراق ومرحلة الصراع السياسي والتدهور الاقتصادي الاجتماعي والتراجع السكاني ، لا في بغداد فقط ، بل في جميع انحاء العراق .

لقد تولى الحكم على بغداد :

١- الاليخانيون ٦٥٦-٧٣٨هـ / ١٢٥٨-١٣٣٨م .

٢- الجلائريون ٧٣٨- ٨١٤هـ / ١٣٣٨ - ١٤١١ م .

٣- التركمان اسرة مرة ترينلو " دولة الخروف الاسود " ٨١٤ - ٨٧٤هـ/ ١٤١١-١٤٦٨ م .

٤- التركمان اسرة اق ترينلو " الخروف الابيض " ٨٧٤-٩١٤هـ / ١٤٦٨ - ١٥٢٣م .

٥- الصفيون ٩١٤ - ٩٣٠هـ / ١٥٢٣-١٥٣٩م .

٦- الاكراد / اسرة كلهور الكردية ٩٣٠ - ٩٣٦هـ / ١٥٣٩-١٥٤٥.

٧- عودة الصفويين ٩٣٦ - ٩٤١ هـ / ١٦٣٥ - ١٦٥١ م .

٨- العثمانيون (الاتراك)٩٤١ - ١٠٣٢ هـ / ١٥٤٤- ١٦٣٥م .

٩- عودة الصفويين ١٠٣٢- ١٠٤٨هـ / ١٦٣٥ - ١٦٥١ م .

١٠- عودة العثمانيين الاتراك ١٠٤٨ - ١٣٣٥ هـ / ١٦٥١ - ١٩١٧ م .

تنتهي هذه المرحلة من التاريخ السكاني (التاريخ الديموغرافي) لمدينة بغداد قبل ان تنتهي عودة العثمانيين لحكم العراق ثانية ، انها تنتهي في عام ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩م حيث تولى حكم العراق الوالي" مدحت باشا" ، لقد تولى حكم بغداد في هذه المرحلة ١١٨ واليا فكان متوسط اعوام الحكم لكل منهم هو ٥ أعوام فقط ، على ان الواقع الفعلي يؤشر استمرار البعض منهم في الحكم الى اكثر من ٢٠ عاما ومن هؤلاء الحكام :-

- احمد الجلائري / حوالي ٣٢ عاما / ٧٨١ - ٨١٣ هـ/ ١٣٨٢ - ١٤١٤ م .
- جهان شاه بن قره يوسف / اكثر من ٢٣ عاما /٨٤٨ - ٨٧٢ هـ / ١٤٤٤ - ١٤٦٧م .
- سليمان باشا الكبير /٢٣ عاما /١١٩٤ - ١٢١٧ هـ / ١٧٨٠ - ١٨٠٣ م .
- محمد بن قره يوسف /٢٢,٥ عاما / ٨١٤ - ٨٣٦ هـ /١٤١١ - ١٤٣٢ م .
- ابو سعيد يهادر / ٢٠ عاما /٧١٦ - ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ - ١٣٣٥ م .
- حسن باشا الجديد / حوالي ٢٠ عاما / ١١١٦ - ١١٣٦ هـ / ١٧٠٤ - ١٧٢٣ م .

بينما تؤشر مراجع التاريخ الى ٤٤ حاكما لبغداد لم يستمر حكم كل واحد منهم اكثر من عام والبعض منهم لم يستمر سوى لبضعة اشهر او بضعة ايام ، فحاكم بغداد " عبدي باشا " لم يحكم بغداد سوى ١٧ يوما فقط من عام ١١٩ هـ /٧٧٦ م . كما ان " شاه منصور بن زينل " لم يستمر في الحكم سوى ٦٠ يوما من عام ٨٧٤ هـ /١٤٦٩ م .

وقد حكم بغداد لبضعة اشهر كل من :

مصطفى باشا ١١٩٠هـ/١٧٧٦م .

حسن باشا ١١٠١ – ١١٠٢ هـ /١٦٨٩ – ١٦٩٠م .

ولي حسين باشا ١٠٥٤ هـ /١٦٤٤م .

صارقجي مصطفى باشا ١٠١٢ هـ /١٦٠٣م .

علي باشا الدرويش ٩٨٢ هـ /١٥٧٤م .

محمد باشا البالطجي ٩٥٩ هـ /١٥٥١م .

فرهاد باشا الصولاق / في ولايته الثانية / ٩٥١ هـ /١٥٤٦م .

حسين علي زينل ٨٧٤ هـ /١٤٦٩م .

بير محمد الطوشي بن زينل /٨٧٣ هـ / ١٤٦٨م .

اربا خان / ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م .

بايدو خان / احد احفاد هولاكو / ٦٩٤ هـ / ١٤٩٤ م .[١٨]

---

[١٨] مرزه ، منذر جواد – المصدر السابق – ص٢٨ .

ان هذا الواقع السياسي يؤشر حالة من عدم الاستقرار فلا يستمر الحاكم سوى بضعة ايام او بضعة شهور او لعام او لعامين ، ولاشك في ان هذا الواقع يعكس اثاره في ادارة مرتبكة وفي حالة امنية ضعيفة وهذا الواقع يعكس اثاره ايضا في تدهور الحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية واللتان يؤدي تدهورهما الى تراجع واقع السكان (الواقع الديموغرافي) الذي يمثل ارتفاع معدلات الوفيات وبشكل خاص ارتفاع معدلات وفيات الاطفال الرضع Infant Mortality وعندما تشير المصادر الى وفيات الاطفال الرضع فذلك يعني بكل فئاتهم العمرية ، فترتفع وفيات المواليد المبكرة Mortality of Still Born وهي التي تقع في الاسبوع الاول من الولادة ، ووفيات المواليد الاولى Mortality of Neantal والتي تقع في غضون ٢٨ يوما بعد الولادة ، ووفيات المواليد المتأخرة التي تقع ما بين ٢٨ يوما بعد الولادة وقبل انتهاء العام الاول .[١٩]

تعد وفيات الاطفال الرضع مؤشرا مهما ، بمثابة البارومتر ، للواقع الاقتصادي الاجتماعي ، كما انها تعد مؤشرا مهما للتغير في النمط الصحي وعلى ضوء ما تصفه مراجع تاريخ بغداد للوضع الاقتصادي الاجتماعي بعد اجتياح "هولاكو " لها فأننا نتوقع ارتفاع كبير لمعدلات الوفيات ولاسيما وفيات الاطفال الرضع .

---

(١٩) الامم المتحدة – اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي اسيا / الاتحاد الدولي للدراسات العلمية للسكان – (المعجم / الديمغرافي متعدد اللغات / مصدر سابق / ص٨٨ .

اطلق "هولاكو" [*] اصحابه لنهب بغداد فاستباحوها سبعة ايام وقتلوا الكثير من الناس واشعلوا النيران في ارجائها ، وبعد ذلك امر " هولاكو " بقتل الخليفة مع ولده واعمامه واقاربه وجماعة من الاعيان . وبعد الايام السبعة امر برفع السيف عن الناس [٢٠] على ان بعض المراجع تشير الى ان مدة الاستباحة قد استمرت مدة ٤٠ يوما .[٢١]

تدهورت بغداد كثيرا فتهدمت اكثر عمارتها وتعرضت لنكبات الغرق المتكررة في عهد المستعصم اخر الخلفاء العباسيين ، وقد وقع الموت وانتشر الوباء بين الناس بعد دخول " هولاكو " وكان الناس الذين سلموا من القتل يكثرون من شم البصل لتستريح انفسهم من شم رائحة الجثث المتفسخة ، وكانوا مضطرين لشرب المياه الملوثة بالجثث المتفسخة ، وكثر الذباب لدرجة انه كان يغطي السماء فيسقط على الاطعمة فيفسدها ، وكان اهل الكوفة

---

[*] هولاكو خان ١٢١٧ / ١٢٦٥م مؤسس سلالة الخانات بفارس ، وهو الحاكم المنغولي الذي نجح بفتح معظم بلدان جنوب غرب اسيا وهو ابن تولوي خان اصغر ابناء جنكيز خان تيمور لنك : يمور ادعى أنه من سلالة جنكيز خان وقد عرف بتيمور الأعرج عن : مرزه ، منذر جواد (٢٠٠٧) مصدر سابق – ص ٢٧٦ .

[٢٠] ابن الفوطي (١٣٨٣ هـ) ، الحوادث الجامعة والتجارب النافقة (منسوب لأبن الفوطي) (حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف وعماد عبد السلام رؤوف) الطبعة الأولى ، منشورات رشيد ، قم ، إيران ، ص ٢١٩ .

[٢١] القزاز ، محمد صالح (١٩٧٠) ، الحياة السياسية في العراق في عصر السيطرة المغولية ، مطبعة القضاء ، النجف الأشرف ، ص٣٣٩ .

والحلة والمسيب ينقلون الى بغداد الاطعمة ويبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة ومعدن الصفر المطعم .[٢٢]

بعد حكم الاليخانيين وحكم الجلائريين الذي انتهى بانتهاء حكم " احمد الجلائري "، وكانت اعوام حكم شاع فيها الظلم والتعسف وتدهور الاقتصاد والمجتمع وارتفاع معدلات الوفيات ، سقطت بغداد ثانية على يد غاز ثانٍ فدخلتها جيوش " تيمورلنك " عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م ودخلتها ثانية في عام ٨٠٥ هـ / ١٤٠٠ م .[**]

وبذلك تمت استباحة بغداد وقتل عدد كبير من سكانها بمن فيهم كبار السن والنساء والاطفال وتهديم جزء كبير من عمارتها وتحويلها الى قاع صفصفا ، ولقد بقيت جثث الموتى في الشوارع والازقة حتى تعفنت وتلوث الهواء [٢٣] وفي حملته الثانية ذبح تيمورلنك الالاف من الناس وهدم المساكن والجوامع .[٢٤]

صادفت حملة "تيمورلنك" الثانية ودخوله بغداد ايام عيد الاضحى فاراد ان يجعل من اهلها قرابين لهذا العيد ، فامر جنوده بان يأتيه كل واحد منهم برأسين من اهالي بغداد ، ففعلوا ذلك وطرحوا الرؤوس امامه ، وعندما كان

---

[٢٢] ابن الفوطي ، المصدر السابق – ص٢١٩ .

[**] تيمور لنك : يعود ادعى أنه من سلالة جنكيز خان وقد عرف بتيمور الأعرج عن : مرزه ، منذر جواد (٢٠٠٧) مصدر سابق – ص ٢٧٦ .

[٢٣] المصدر نفسه ، تلاحظ الصفحات ، ١٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٠١٦ .

[٢٤] نونكريك ، س. هـ. (١٩٤٢) اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (ترجمة جعفر الخياط) – الطبعة الخامسة / مكتبه التحرير / بغداد / ص٢٨ .

يعجز بعضهم عن رؤوس الرجال يلجأ الى قطع رؤوس النساء والاطفال [٢٥] لقد كانت الفترة ما بين ٦٥٦ – ١٠٤٨ هـ / ١٢٥٨ – ١٦٣٨ م اشد الاعوام في تاريخ العراق ظلاما ، انها حقا الفترة المظلمة Dark period في تاريخ بغداد والعراق عموما ، فقد كانت فيها الادارات السياسية ضعيفة وقلقة والادارات المحلية متخلفة ، انتشر فيها الجوع والامراض لاسيما الطاعون والهيضة (الكوليرا) والجدري والتدرن ، والصراعات العشائرية والنزاعات الطائفية التي تسببت في صراع اقليمي ما بين تركيا العثمانية وايران الصفوية على مدى الاعوام ٩١٤ – ١٣٣٥ هـ / ١٥٠٨ – ١٩١٧ م .

كان القتل الطائفي وضحايا المعارك العشائرية وكذلك ضحايا الجوع والفقر والاوبئة يشكلون النسبة الاعظم من اجمالي الوفيات .لقد استمر التراجع في مدينة بغداد طوال اعوام القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي فتقلصت حدودها بفعل تراجع الاقتصاد واعداد السكان ومن ثم العمران . تشير بعض التقديرات التي تعود الى القرن السابع عشر الى ان محيط بغداد كان حوالي ٧ اميال واكثر من ٨٠٠ خطوة [٢٦] بينما جاءت

---

[٢٥] ابن الفوطي ، المصدر السابق .

[٢٦] الحمداني ، طارق نافع (١٩٩٠) بعض جوانب الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد ومصادرها خلال القرنيين السابع عشر
والثامن عشر – (بغداد في التاريخ – الندوة العلمية الاولى التي عقد هاشم التاريخ – كلية التربية الاولى / جامعة بغداد –
ص٥٣٨ .

تقـديرات الرحالــة الفرنســي " تافرنييــه " بــان محـيط بغـداد لا يتجـاوز ٣ اميال .[٢٧]

لعل الفارق ما بين التقديرات يعود الى الاختلاف في اساس التقدير ، فيأتي التقدير احيانا يستند الى سور المدينة ، في حين يستند التقدير الاخر الى المساحات المسكونة في المدينة ، فالمعروف ان بغداد بعد خرابها انتشرت فيها الكثير من المناطق السكنية المهدمة والمهجورة ، وبذلك يصفها الرحالة " تيفنو" في القرن السابع عشر قليلة السكان بالنسبة الى مساحتها [٢٨] وقد اكد الرحالة " نيبور " هذا الوصف بعد اكثر من قرن من الزمن فأشار ان القسم الاعظم من بغداد مهدم ومهجور[٢٩] ، وبصدد اعداد السكان فهي ٦٨٦٣٦ نسمة عند نهاية القرن السادس عشر كما اشار اليها المؤرخ التركي "باركان" في كتاب التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط الصادر عن جامعة اكسفورد [٣٠] وتقدر هذه الاعداد ما بين ٦٠٠٠٠ – ٨٠٠٠٠ نسمة في القرنيين السابع عشر والثامن عشر [٣١] واشار الرحالة الفرنسي "اوليفية" عام ١٧٩١ م الى ان هذه الاعداد كانت دون ٨٠٠٠٠ نسمة [٣٢].

---

[٢٧] تافرنيه ، باتيست (١٩٤٤) العراق في القرن السابع عشر (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) مطبعة المعارف – بغداد – ص ٧٨ .

[٢٨] الحمداني ، مصدر سابق – ص ٥٣٨ .

[٢٩] نيبور ، (١٩٦٥) رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر (ترجمة محمود حسين الامين) – شركة دار الجمهورية للنشر والطباعة – بغداد – ص٢٥ .

[٣٠] الحمداني ، المصدر السابق – ص٥٣٩ .

[٣١] لمصدر نفسه – ص٥٣٩ .

[٣٢] المصدر نفسه – ص٥٣٩ .

كما ان ظروف القهر والفقر وعدم استباب الامن الاجتماعي لا تشجع على التوجه الى الزواج الا بحدود ضيقة ، من ذلك نتوقع ان المعدل السنوي للوفيات يفوق كثيرا المعدل السنوي للولادات ، ولعل وفيات الاطفال الرضع شكلت النسبة الاكبر من معدل الوفيات.

لم يتوجه الباحثون العراقيون ولا الباحثون العرب الى دراسة تاريخ السكان " التاريخ الديموغرافي " الا بجهود محدودة جدا في حين تمت دراسات معمقة كثيرة لدراسة اوروبا ودراسة البلدان الاوربية كل على حده، نحاول ان نستفيد من نتائج هذه الدراسات ، فهذه الدراسات على العموم توصف حركة الوفيات بانها حركة سريعة وبمستوى مرتفع ففي الماضي القريب عند منتصف القرن التاسع عشر كان يموت في المملكة المتحددة شخص واحد من كل ٣ اشخاص بسبب الامراض السارية ، وفي القرن السابع عشر كان معدل الوفيات يصل الى ٤٠ بالألف من اجمالي السكان وذلك وفق ما أشارت اليه الدائرة السكانية العالمية التابعة الى الامم المتحدة .[٣٣]

وفي الوقت الحاضر فان الدائرة السكانية العالمية تشير الى المعدلات السنوية لوفيات الاطفال في المجتمعات المتخلفة الفقيرة اقتصاديا والفقيرة الى الخدمات الصحية ، فهي تصل الى ١٠٠ لكل ١٠٠٠ مولود حي في العديد من بلدان افريقيا جنوب الصحراء وبعض بلدان اسيا ، ويرتفع هذا المعدل في بعض مدن بورما ليصل الى ٣٠٤ لكل ١٠٠٠ مولود ، وكذلك في بعض

---

[٣٣] الخفاف ، عبد علي جغرافية السكان (١٩٩٩) / اسس عامة – دار الفكر / عمان / الاردن / ، ص ١٧٧ .

مدن الهند وفي بعض مدن البرازيل وذلك في عقد الخمسينات وما قبله من القرن الماضي .[٣٤]

في ضوء هذه المعلومات سيكون ليس من المبالغة ان نقدر المعدل السنوي للوفيات بحدود ٣٠٠ بالألف ، كما كان عليه الحال في لندن والمدن البريطانية التي اشرنا اليها، وان نقدر المعدل السنوي لوفيات الاطفال الرضع بحدود ٤٠٠ بالالف وذلك على وفق التوصيف الذي تقدمه مراجع ومصادر تاريخ بغداد في تلك الفترة المظلمة .

في مثل هذا الواقع الاقتصادي الاجتماعي المتراجع والامني المتردي يكون متوسط عمر الفرد قصيرا ، وهذا المتوسط يحسب عادة بقسمة مجموع اعمار المتوفين في جميع الفئات العمرية على عددهم ، من ذلك يرتبط هذا المتوسط بحركة الوفيات . تقدر الدراسات التاريخية للسكان متوسط عمر الانسان في ما قبل القرن التاسع عشر ما بين (٣٠ – ٤٠) عاما كما تشير الدراسات السكانية التي تتناول المجتمعات المتخلفة اقتصاديا واجتماعيا في ١٩ بلدا في افريقيا جنوب الصحراء وفي جنوب شرق اسيا الى ان هذا المتوسط يقل عن ٤٠ عاما ، وهو في ١٨ بلدا في نفس المنطقتين يتراوح ما بين (٤٠ –٤٨) عاما ، ولأجل المقارنة نشير الى ان هذا المتوسط يرتفع في البلدان المتقدمة الى (٧٥ – ٨٠) عاما .[٣٥]

---

[٣٤] المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

[٣٥] المصدر نفسه .

الى جانب حركة الوفيات الواسعة فقدت بغداد سكانها بفعل الهجرة المعاكسة التي اتجهت منها الى الريف والقصبات المجاورة خوفا من موجات القتل والوباء والغلاء لاسيما في الفترة المحصورة ما بين (٦٥٦ - ٩١٥هـ) (١٢٥٨ - ١٥٠٨ م) فقد كانت اكثر الفترات التي فقدت بغداد فيها سكانها بسبب النزوح عنها . اننا لا نرى في الروايات التي اشارت الى تراجع عدد السكان في بغداد الى اقل من ٣٠٠٠٠ نسمة عند وقوعها تحت السيطرة الصفوية في ٩١٤ هـ ، اية مبالغة ، والى استمرار هذا التراجع ليهبط عدد السكان الى ١٥٠٠٠ نسمة في فترة استيلاء السلطان مراد عام ٩٧٥هـ [٣٦] فهذا امر متوقع في مجتمع تتدهور فيه الظروف الاقتصادية والاحوال الاجتماعية ويتردى الامن وتتفشى فيه الاوبئة وينتشر الجوع والفقر .

لقد حصلت هذه الخسارة السكانية بمتوسط سنوي مقداره ٢٥٠٠ نسمة ، ولاشك في ان هذه الخسارة لم تحصل بصورة منتظمة بل نتوقع انها كانت تحصل على شكل موجات من الموت وذلك ما بين (٦٥٦-١٢٨٦هـ) تتخللها فترات من التوقف والعودة الى حركة الوفيات الاعتيادية .

مع نهاية هذه المرحلة تكون بغداد قد خرجت من مرحلة التراجع المطرد لعدد السكان ومن مرحلة الاقتصاد المعاشي ، التي اتسمت بالفوضى السياسية والادارية والتدهور الاقتصادي والاجتماعي وهبوط المستوى المعيشي الى ادنى مستوياته ، وانتشار امراض نقص وسوء التغذية وسوء

---

[٣٦] المصدر نفسه ، ص ١٩٠ - ١٩٥ .

التغذية والأمراض السارية وكذلك انتشار امراض الاطفال وامراض الانجاب والولادة ، وقد تسبب عن تكرار تفشي بعض الامراض ما يطلق عليها بالامراض المتوطنة ، لا شك في ان هذا الواقع المرضي كان محصلة لهبوط المستوى المعيشي ولعدم توفر الخدمات الصحية والبلدية وتدهور ظروف السكن ، ومن حصيلة هذا الواقع لا بد ان يرتفع المعدل السنوي للوفيات ووفيات الاطفال والاطفال الرضع ، وهو معدل نقدره وفق نتائج دراساتنا السابقة بحدود ٥٠ بالألف يرتفع بين الاطفال الرضع الى ٤٠٠ لكل الف مولود حي واحيانا الى ٥٠٠ لكل الف مولود حي . اذا ما تم تقديرنا للمعدل السنوي للولادات حينذاك بحدود ٥٠ بالألف ايضا [٣٧] تتضح لنا حالة التراجع السكاني والنمو السلبي بفعل ارتفاع معدل وفيات الاطفال الرضع[٣٨] .

مراجع الهوامش :

- رحلة ابن جبير ، محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ، (تحقيق حسين محمد نصار) (١٣٧٤ هـ) ، مطبعة دار مصر .

---

[٣٧] الحموي ، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي - معجم البلدان - ج ٢ الطبعة الثانية - دار صادر - دار بيروت ، ص ٣٨٣ .

[٣٨] الخفاف ، عبد علي (١٩٩٨) ، واقع السكان في الوطن العربي ، دار الشروق / عمان / الاردن ، ص ٧٠ .